



ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne

AnIsl 58 (2024), p. 183-202

Omaïma Hassan El-Mahdi

Al-awbi'a bayna al-tafsīrāt al-'ilmīyya wa-l-tafsīrāt al-dīniyya : qirā'a fī al- maṣādir al-mamlūkiyya fī al-qarn al-ḥāmis 'aṣar al-mīlādī

Conditions d'utilisation

L'utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l'éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l'éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

- | | | |
|---------------|--|--|
| 9782724711523 | <i>Bulletin de liaison de la céramique égyptienne</i> 34 | Sylvie Marchand (éd.) |
| 9782724711400 | <i>Islam and Fraternity: Impact and Prospects of the Abu Dhabi Declaration</i> | Emmanuel Pisani (éd.), Michel Younès (éd.), Alessandro Ferrari (éd.) |
| 9782724710922 | <i>Athribis X</i> | Sandra Lippert |
| 9782724710939 | <i>Bagawat</i> | Gérard Roquet, Victor Ghica |
| 9782724711547 | <i>Le décret de Saïs</i> | Anne-Sophie von Bomhard |
| 9782724710915 | <i>Tebtnis VII</i> | Nikos Litinas |
| 9782724711257 | <i>Médecine et environnement dans l'Alexandrie médiévale</i> | Jean-Charles Ducène |
| 9782724711363 | <i>Bulletin archéologique des Écoles françaises à l'étranger (BAEFE)</i> | |

أمية حسن المهدى*

الأوبئة بين التفسيرات العلمية والتفسيرات الدينية

قراءة في المصادر المملوكيّة في القرن الخامس عشر الميلادي

• ملخص

شهد العصر المملوكي بشكل متكرر، بدءاً من أربعينيات القرن الرابع عشر وحتى نهاية هذا العصر في ١٥١٧ م، انتشار أوبئة كثيرة أحدثت دماراً ديموغرافياً واجتماعياً واقتصادياً بالغ. وقد تناول مؤرخو القرن الخامس عشر تفاصيلها وأثارها المأساوية، كما حاولوا العثور على أسبابها؛ وقد اختلفت تفسيراتهم لظهورها وانتشارها باختلاف خلفياتهم الثقافية والمعرفية.

يورد هذا البحث أهم هذه التفسيرات التي تراوحت بين التفسيرات الطبية والطبيعية السائدة في عصر هؤلاء المؤرخين وتفسيرات رجال الدين من المحدثين والمفسرين والفقهاء المعتمدة أساساً على الأحاديث والآثار المنقولة عن الرسول وصحابته.

الكلمات المفتاحية: المماليك، الأوبئة، الطاعون، الموت الأسود، نظرية الأخلاط الأربع، القرن الخامس عشر

* أمية حسن المهدى، حاصلة على شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية من جامعة الزقازيق بمصر، omaima1071@gmail.com

♦ ABSTRACT

Epidemics Between Scientific and Religious Interpretations: Reading in Mamluk Sources in the 15th Century

The Mamluk era witnessed the spread of epidemics repeatedly from the 1340s until its end in 1517, causing demographic, social and economic devastation. While fifteenth-century historians record their outbreak and their tragic effects, they wondered about their causes. Theirs answers differed according to their cultural and scientific backgrounds.

This research aims to present the most important interpretations that these historians gave of the occurrence and the spread of epidemics, which varied between medical and natural interpretations prevalent in their era and religious ones based mainly on *hadiths* transmitted from the Prophet and his companions.

Keywords: Mamluks, epidemics, the plague, black death, humorism, 15th century

♦ RÉSUMÉ

Les épidémies entre interprétations scientifiques et religieuses. Lecture dans les sources mameloukes au xv^e siècle

L'époque mamelouke a connu à plusieurs reprises, à partir des années 1340 et jusqu'à sa fin en 1517, la propagation d'épidémies qui ont causé des ravages démographiques, sociaux et économiques. Les historiens du xv^e siècle ont consigné les événements liés à ces épidémies ainsi que leurs effets tragiques. Ils se sont également interrogés sur leurs causes, et leurs réponses ont varié suivant leurs origines culturelles et scientifiques.

Cette recherche vise à présenter les principales interprétations que ces historiens ont données à l'apparition et à la propagation des épidémies et qui ont varié entre les interprétations médicales et naturelles prédominantes à leur époque et celles religieuses, basées principalement sur les *hadiths* et les traditions transmises par le Prophète et ses compagnons.

Mots-clés: Mamelouks, épidémies, peste, peste noire, humorisme, xv^e siècle

* * *

مقدمة

بدأ وباء الطاعون (الموت الأسود) انطلاقاً من سهوب الإستبس في آسيا الوسطى، وفي ثلثينيات القرن الرابع عشر تفشي في الصين (١٣٣١ م)^١ ثم الهند، كما انتشر عن طريق القوافل التجارية والسفن والجيوش والبعثات الدبلوماسية في المناطق الشرقية من العالم الإسلامي والمملوكة البيزنطية، ظهر في القسطنطينية عام ١٣٤٧ م، وانتشر في موانئ البحر المتوسط فوصل إلى صقلية ومارسيليا والإسكندرية في نفس السنة، ومن الموانئ إلى المناطق الداخلية من شمال أفريقيا وأوروبا عام ١٣٤٨ م. كذلك، انتشر شمالاً في الأناضول وفي الجنوب الشرقي إلى الموصل وبغداد بحلول عام ١٣٤٩ م، واستمر في الانتشار في أوروبا حتى وصل إلى موسكو عام ١٣٥١ م؛ وعلى مدار القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، دمر الموت الأسود والأوبئة اللاحقة أوروبا والشرق الأوسط ديمografياً إذ أسفرت عن ملايين القتلى وخراب اقتصادي واجتماعي كبير.

شهد العصر المملوكي انتشاراً للأوبئة بشكل متكرر بدءاً من أربعينيات القرن الرابع عشر في عام ٧٤٨ هـ/١٣٣٨ م وحتى نهاية هذا العصر في ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م^٢، الأمر الذي أثار انتباه المؤرخين بالطبع، خالوا تفسيرها عند الحديث عنها، وكما تعددت خلفياتهم الثقافية والعلمية والفكرية، اختلفت رؤاهم لها، فالرغم من وجود قدر ثابت من التعليم الديني لديهم، يبدأ بحفظ القرآن ودراسة الحديث والفقه، كانت مشاربهم الثقافية وخلفياتهم الاجتماعية مختلفة. بعضهم كان مهتماً بالتاريخ في المقام الأول مع الانخراط في أعمال مختلفة في الدولة كالمقرنزي^٣ (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م)، الذي تولى حسبة القاهرة قبل أن يتفرغ للكتابة التاريخية، والصيري (ت ٩٠٠ هـ/١٤٩٥ م)، الذي تولى صيرفة السلطان، وابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ/١٤٧٠ م)، الذي كان من الجيل الثاني من المماليك (أبناء الناس). بعضهم الآخر كانوا رجال دين من الفقهاء والمحاذين والمفسرين كابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٩ م) والسيوطي (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م). وقد توّعت هذه التفسيرات لظهور الأوبئة وتفشيها ما بين الديني الحض أو الأسطوري، والطبي العلمي، وأغلبها كان خليطاً من كل هذا.

١. Dols 1977, p. 28 ; Ayalon 2015, p. 35 ;

٢. المقرنزي، السلوك، ٢، ق، ٣، ص ٧٧٢-٧٨٠؛ بين ٢٠١٤، ص ١٨-٢٠. انظر كذلك:

Dols 1977, p. 35, 38 ; Ayalon 2015, p. 28-29.

٣. انظر ترجمة المقرنزي في الصيري، تزهه النفوس والأبدان، ٤، ص ٢٤٢-٢٤٤.

يقارن هذا البحث بين تفسيرات المؤلفين، من مؤرخين وفقهاء وغيرهم، لظهور الأوبئة، مبيناً أسباب اعتمادهم لرؤيه ما، مفترضاً تأثيرهم في ذلك بخلفيهم العلمية أو الفكرية أو الثقافية. ويهم بالسياقات التي أوردوها في العصر المملوكي لفسير حدوثها، حيث شغل أذهانهم التساؤل حول سببها وموت الناس والخوف والملع الذي سيطر على المجتمع، كما شغل أذهان كافة الناس، فذكروا آراء طوائف المجتمع المختلفة في هذا الشأن.

١. التفسيرات الطبيعية للأوبئة

١٠١. نظرية الأخلاط أو الأمزجة الأربع

اتبع المؤرخ تقي الدين المقريزي في تفسيره للأوبئة النظرية السائدة في العصور الوسطى، وهي نظرية الأخلاط أو الأمزجة الأربع، التي عرفت لدى الأطباء اليونانيين - وخاصة أبقراط وجالينوس - وانتقلت إلى العالم الإسلامي على يد ابن سينا والرازي وغيرهما من الأطباء^٤. وتقوم هذه النظرية على أن كل شيء في العالم يتكون من واحد من العناصر الأربع هي الهواء والماء والنار والتراب، وتقابلاها في الإنسان أخلاط أربعة هي الدم والبلغم والصفراء والسوداء، وتنتج عن هذه الأخلاط الأربع الأمزجة الأربع، وهي المزاج الدموي والبلغمي والصفراوي والسوداوي. ويختلف المزاج، وفق هذه النظرية، بحسب الإقليم، كما أن لكل فرد من الناس مزاجاً خاصاً يتحكم في حالته العضوية والنفسية.

ويرى جالينوس أن المزاج يتأثر بالمناخ حسب الفصول، وأن من يريد البحث في أسباب الأمراض عليه أن ينظر بعين الاعتبار إلى فصول السنة والآثار التي يحدثها كل منها، ثم بعد ذلك إلى الرياح الساخنة والباردة والرطبة وال LIABILITY، فإذا زاد في الهواء الحبيط بالأجساد أي منها، فإنه يكدر ويفسد اعتدال مزاج الأبدان، ومنها الشائعة في كافة الأماكن والبلدان ومنها الخاصة بكل موضع من العالم على حدة، وعلى المرء، حسب قوله، أن يتذكر بمزيد من الانتباه في المياه التي يستخدمها سكان المدينة، وهل هي مياه مستنقعات أم مياه تجري من موضع مرتفعة ومحضرة، وفي الأرض إن كانت جرداً أو مكسوة بالأشجار ومروية جيداً، وهل تقع في موضع منخفض محصور أو في مرفأ بارد، وفي الأسلوب الذي يعيش به السكان، والأنشطة التي يمارسونها، وهل هم مغرون بالشهوات، وهل يميلون إلى الكسل، أم أنهم مغرون بالتربيض والعمل الشاق^٥.

٤. Dols 1977, p. 87.

٥. جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط، ص ٧٦-٧٠، ٨٠-٧٩، ابن سينا، القانون في الطب، ١، ص ٢١-١٧، ٢١-٢٨، ٣٥-٢٨، ٢٠١-٢٠٠، عطية ١٩٩٩، ص ١٢٦-١٢٧؛ واتس ٢٠١٠، ص ٢٠١٤، ٨٥؛ بيرن ٢٠١٤، ص ٣٠-٣٣، ٣٩٩، ٤٠٢؛ ساراشي ٢٠١٥، ١٦-١٥. انظر كذلك:

Sarton 1943, p. 205-206, Dols 1977, p. 78.

ويطلق المقريزي على الوباء اسم المرض الوفد، ويسميه أيضاً الموتان لأنّه يكثّر معه الموت، ويعرفه بأنه ما يعم خلقاً كثيراً في بلد واحد وزمان واحد^٦، وذلك نقاً عن كل من أبقراط وجالينوس^٧. ويرى، نقاً عن الأطباء، أنّ السبب في حدوثه سيلان الأخلاط في الربع وجمودها في فصل الشتاء، ولذلك يحدث دائمًا في الربع حسب قوله، وإن كان رصد محيي الطاعون عام ١٤٢٩هـ/٨٣٣ م في الشتاء على خلاف ما قوله الأطباء من حدوث الأمراض في الربع^٨، وهو ما عده الصيرفي من التوادر لنفس السبب، وأرجع ذلك إلى مشيئة الله تعالى و اختياره^٩.

ويرى المقريزي أن «للمرض الوفد» أسباباً كثيرة وأنّ السبب الأول فيها زيادة فيضان النيل زيادة كبيرة عن الحد، واستمرار هذه الزيادة مدة طويلة، لأنّ الفيضان في مصر يحدث في الصيف، وتغمر المياه الأرض في فصل الخريف، بخلاف الأنهر الأخرى التي تفيض في الشتاء^{١٠}. يقول: «أرض مصر كثيرة الاختلاف، كثيرة الرطوبة الفضلية التي يسرع إليها العفن، والعلة القصوى في جميع ذلك هو أنّ أخص الأوقات بالجفاف في الأرض كلها تكثر فيه بمصر الرطوبة، لأنّها تترطب في الصيف والخريف بمد النيل وفيضه، وهذا بخلاف ما عليه البلدان الأخرى^{١١}».

ويرى المقريزي أنه إذا كان المصريون لا يمرضون دوماً، فلتعودهم على حال أرض مصر ولأن أجسادهم تشبه الأرض التي نشأوا فيها^{١٢}. ولذلك لا يتعرضون للأوبئة إلا إذا زاد الفيضان عن المعتاد وزادت مدته عن الحد الطبيعي: «إذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعاً كانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء^{١٣}». لكن لم يربط المقريزي بين زيادة الفيضان (حالات الاستبحار) وحدوث الأوبئة في حولياته إلا في حالة واحدة في عام ١٤٢٢هـ/٨٢٥ م، عندما ذكر أنّ فيضان النيل قد بلغ في أقصى حد له في هذا العام عشرين ذراعاً ونصف ثم أشار إلى انتشار الأمراض في نفس العام في القاهرة والوجه البحري عند انحطاط ماء النيل في فصل الخريف^{١٤}.

٦. المقريزي، الخطط، ١، ص ١٢٢.

٧. جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط، ص ٨٠، ٨٢، ٨٤.

٨. جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط، ص ١٨٢؛ المقريزي، السلوك، ٤، ق ٢، ص ٨٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم الظاهرة، ١٤، ص ٣٣٨-٣٣٧.

٩. الصيرفي ١٩٧٣-١٩٧١، ٣، ص ١٨٢-١٨٣.

١٠. المقريزي، الخطط، ١، ص ١٢١.

١١. المقريزي، الخطط، ١، ص ١١٥.

١٢. المقريزي، الخطط، ١، ص ١١٥-١١٦، ١١٦-١٢٢.

١٣. المقريزي، الخطط، ١، ص ١٥٨.

١٤. المقريزي، السلوك، ٤، ق ٢، ص ٦٢٥، ٦٢٠؛ الجعیدی ٢٠٠٢، ص ٤٥، ٤٧.

وأتفق معه في الرأي المؤرخ ابن تغري بردي الذي يقول في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: «إذا زاد [أي النيل] على السبع عشرة وبلغ الثمان عشرة ذراعا وأغلقها استبحر من أرض مصر الرابع [٠٠٠] وإذا كانت الزيادة ثمان عشرة ذراعا كانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء في مصر^{١٥}»

٢٠١ . تغير كيفية الهواء والماء والغذاء الحالة النفسية

كما يرى المقريزي أن الأوبئة لها أسباب كثيرة تجتمع في أربعة أمور أساسية، وهي تغير كيفية الهواء^{١٦} وتغير كيفية الماء وتغير كيفية الأغذية وتغير الحالة النفسية للناس^{١٧}، فيقول:

[...] فالأمراض الوافدة بمصر تحدث إما عن فساد لم تجر به العادة يعرض للهواء، سواء كانت مادة فساده من أرض مصر، أو من البلاد التي تجاورها كالسودان والخجاز والشام وبرقة، أو يعرض للنيل بأن تفترط زيادته فتكثُر زيادة الرطوبة والعنف، أو تقل زيادته جداً فيجف الهواء عن مقدار العادة ويضطر الناس إلى شرب مياه رديئة، أو يخالطه عفونة تحدث عن حرب تكون في أرض مصر أو بلاد السودان أو غيرها يموت فيها خلق كثير ويرتفع بخار جففهم في الهواء فيعفنه ويتصل عفنه إليهم، أو يسيل الماء ويحمل معه العفن، أو يغلو السعر، أو يلحق الغلات آفة، أو يدخل على الكباش ونحوها مضره، أو يلحق الناس خوف عام أو قنوط، وكل واحد من هذه الأسباب يحدث في أرض مصر مرضًا وافداً تكون قوته بمقدار قوته السبب المحدث له، وإن كان أكثر من سبب واحد كان ذلك المرض أشد وأقوى وأسرع في القتل^{١٨}.

والهواء، من وجهة نظر المقريزي، تغير كيفيةه على ضربين: أحدهما تغيره الذي جرت به العادة، وهذا لا يحدث مرضًا ولا وباءا، والثاني تغيره الخارج عمّا جرت به العادة، ويرى أن هذا هو الذي يسبب حدوث الأوبئة. وخروج تغير الهواء عن عادته، يكون «إما بأن يسخن أكثر أو يبرد أو يجف، أو يخالطه حالة عفنية، والحالة العفنية

١٥ . ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١، ص ٥٤

١٦ . كانت النظرية السائدة في تفسير حدوث الوباء في العصور الوسطى تقوم على أن سببه الرئيسي هو فساد الهواء أو الماء المخلل والمعفن على حد قول ابن سينا.

١٧ . راجع: جاليوس، شرح جاليوس من كتاب أبقرطاط، ص ٨٠، ٨٤، ٨٢، ١٨٨؛ ابن سينا، القانون في الطب، ١، ص ٢٠١

١٨ . المقريزي، الخطط، ١، ص ١٢٢

١٩ . المقريزي، الخطط، ١، ص ١٢٤

إما أن تكون قيبة أو بعيدة^{١٩}، ثم ينقل آراء أطباء اليونان القديمة في أن فساد الهواء من الممكن أن ينتقل من أماكن بعيدة فيقول: «إن أبقراط وجالينوس يقولان: إنه ليس يمنع مانع من أن يحدث ببلد اليونانيين مرض وافد عن عفونة اجتمعت في بلاد الحبستة، وترات إلى الجو والخدرت على اليونانيين فأحدثت فيهم المرض الوافد»^{٢٠}، ويحدث المقريزي عن ارتباط الأوبئة بالماء فيقول:

والماء أيضا قد يحدث المرض الوافد، إما بأن يفرط مقداره في الزيادة أو النقصان، أو يخالطه حال عفنة، ويضطر الناس إلى شربه، ويعفن به أيضا الهواء المحيط بأبدانهم، وذلك إذا شرب منه مباشرة وهو كذلك، أو من أثناء جريانه على موضع اجتماع فيه من جيف الموتى شيء كثير، أو بمياه نقائع عفنة فيختلط بها .^{٢١} ويحدّرها معه

كذلك يحدث المقريزي عن أن سبب الأوبئة قد يكون الأغذية إذا هزلت الحيوانات وارتفع ثمنها وأضطر الناس إلى أكلها، أو بسبب فساد مرعاها أو الماء الذي تشربه^{٢٢}، ثم يذكر أثر العامل النفسي في انتشارها، فيقول:

والأحداث النفسانية تحدث المرض الوافد متى حدث في الناس خوف عام من بعض الملوك، فيطول صبرهم وتنكرهم في الخلاص منه وفي وقوع الوباء، فيسوء هضم أجوفهم وتتغير حرارتهم الغزيرة، وربما اضطروا إلى حركة عنيفة في هذه الحال، أو يتوقعون فقط بعض السنين، فيكثرون الحركة والاجتهد في ادخار الأشياء، ويشتد غبهم بما سيحدث^{٢٣}.

١٩ المقريزي، الخطط، ١، ص ١٢٣-١٢٤.

٢٠ المقريزي، الخطط، ١، ص ١٢٣.

٢١ المقريزي، الخطط، ١، ص ١٢٣.

٢٢ المقريزي، الخطط، ١، ص ١٢٣.

٢٣ المقريزي، الخطط، ١، ص ١٢٣.

٣٠١ العدوى

كذلك، عرف المقرىزى العدوى^{٢٤}، فالرغم من عدم معرفة الأطباء حتى العصر الحديث للبكتيريا والفيروسات المسئولة للأمراض ولا لطرق العدوى بها، فقد عرّفوا العدوى بالمشاهدة والنظر في أحوال المرضى وأرجعواها إلى مخالطة أخلاط فاسدة للهواء، يقول:

وقد يتغير أيضاً مزاج الهواء على العادة، بأن يصل وقد كثير قد أنهك أبدانهم طول السفر وساعات أخلاطهم، فيخالط الهواء منها شيء كثير، ويعق الإعاء في الناس، ويظهر المرض الوارد [٠٠٠]؛ وظاهر أنه إذا كثُر في وقت واحد المرضى بمدينة واحدة، ارتفع من أبدانهم بخار كثيف فيتغير مزاج الهواء، فإذا صادف بدننا مستعداً لمرضه، وإن كان صاحبه لم يتعرض لما يتعرض إليه الناس^{٢٥}.

٤٠١ ارتباط الأوبئة بالمجاعات

والمجاعات غالباً ما ترتبط بظهور وباء الطاعون، ربما نتيجةً لانخفاض المناعة والمقاومة البشرية للأمراض، ونقل احتياطيات الغذاء مما يجعل الفئران المصابة تتصل بالبشر^{٢٦}. وقد أدرك المؤرخون كالقرىزى وابن تغري بردي هذه الصلة الوثيقة فربطوا بين نقص فيضان النيل وغلاء الأسعار وحدوث المجاعات، من جهة، وحدوث الأوبئة، من جهة أخرى، فيذكر المقرىزى أنه حدث في عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م نقص في فيضان النيل فغلت الأسعار وانتشرت الأوبئة في مصر^{٢٧}، وكذلك في عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م في صعيد مصر^{٢٨}. كذلك، يروي أن السبب في الوباء الذي كان في عهد الخليفة الظاهر الفاطمي عام ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م، كان نقصان النيل فاشتد الغلاء وعم الخوف والاضطراب وحدثت المجاعة ومن ثم انتشر الوباء في مصر^{٢٩}.

٢٤. تختلف العدوى هنا عن العدوى بمفهومها الحديث بعد اكتشاف الميكروبات، فهي وجهة نظر توفيقية بين الرأي الشائع وقتها لأبقراط وجاليوس من أن السبب في الوباء هو مزاج الهواء الحيط بالناس وبين انتشار الوباء بين المخالطين للمرضى. جالينوس، شرح جاليوس من كتاب أبقراط، ص ٨٠، ٨٢، ٨٤، ١٨٨، ١٠٢٤ م، انظر كذلك:

Dols 1977, p. 92-93.

٢٥. المقرىزى، الخطط، ١، ص ١٢٣.

٢٦. Dols 1977, p. 22.

٢٧. المقرىزى، الخطط، ١، ص ١٩٦.

٢٨. المقرىزى، الخطط، ١، ص ٥١٦.

٢٩. المقرىزى، الخطط، ٢، ص ١٩١-١٩٠.

ويذكُر كل من المقريزي وابن تغري بردي أنه في العام الأول من حكم العادل كتبغا المنصوري (٦٩٤-٦٩٦ هـ/ ١٢٩٤-١٢٩٦ م)، كان الغلاء عظيماً بسائر البلاد، ولا سيما بمصر والشام، وكان بمصر مع الغلاء وباء عظيم وقاسى الناس الشدائِد في هذه السنة، واستسقى الناس بمصر من عظم الغلاء والفناء^{٣٠}.

٥.١. ارتباط الأوبيّة بالفتن والحروب

كذلك قرن المؤرخون في مصر المملوكيّة بين حدوث الفتن والحروب وكثرة القتلى، من جهة، والأوبيّة، من جهة أخرى، فقد ذكر المقريزي أن السبب في «الشدة المستنصرية»، وهي المجاعة التي حدثت في عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٥ م واستمرت إلى عام ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م، حدوثُ غلاء شديد أعقبه وباء، وأن السبب في حدوث الغلاء وقوعُ فتن وحروب بين الأتراك والبيهقيّين ومع الخارجين على الدولة، كابن حمدان الذي خرج على الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ/ ١٠٣٦-١٠٩٤ م) في البحيرة، وخطبَ لخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧ هـ/ ١٠٣١-١٠٧٥ م)، فاربه المستنصر بالله، خُدثَ الغلاء في مصر نتيجةً لقطعِ الطرق ونهبِ الأراضي والمخازن، واستمر الأمر على ذلك سبعَ سنين؛ وبرغم حدوث الفيضان، لم يتمكن الناس من الزراعة بسبب انعدامِ الأمان، فعمت المجاعة والوباء أرض مصر فأكل الناس الميّة والكلاب والقطط^{٣١}. كذلك، حدث الوباء في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (٥٢٤-٥٤٤ هـ/ ١١٣٠-١١٤٩ م) في عام ٥٣٦ هـ/ ١١٤٢ م بسبب غلاء الأسعار الناتج عن انعدامِ الأمان في البلاد^{٣٢}، وكذلك في عام ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٩ م، حيث حدث وباء عظيم قدر من مات فيه بحوالي مائة ألف^{٣٣}.

٦.١. التفسيرات الفلكية

إلى جانب الأسباب الطبيعية الشائعة في ذلك العصر، نقلت لنا أعمال المؤرخين في القرن الخامس عشر المعرف السائدة آنذاك عن أسباب أخرى للأوبيّة. وينقل المقريزي، الذي يميل إلى التفسيرات الطبيعية، عن مؤلف مجهول - رأى مصنفاً له في التنجم وعليه شرح - أن السبب في حدوث الغلاء والوباء في مصر «عندما حل زحل في برج الجوزاء وكان معه الجوزه فكانت أشد وأقوى^{٣٤}»؛ وينقل عن شارح الكتاب أن هذا قد وقع فعلاً في

٣٠. المقريزي، الخطط، ٢، ص ١٤٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٨، ص ٧١.

٣١. المقريزي، الخطط، ٣، ص ١٣٦-١٤٣.

٣٢. المقريزي، الخطط، ٢، ص ٢٠١.

٣٣. المقريزي، السلوك، ٤، ق ٢، ص ٨٣٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤، ص ٣٤٧.

٣٤. المقريزي، الخطط، ٢، ص ٢٤١.

عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وفي آخر عام ٦٩٤ هـ/١٢٩٥ م وأول سنة ٦٩٥ هـ/١٢٩٥ م في عهد العادل كتبغا^{٣٥}.

ويرى المقريزي صحة هذا الأمر فيقول إن هذا القرآن يحدث كل ثلاثين عاماً ويستمر لمدة ثلاثين شهراً، وأنه اخترع ذلك بنفسه وراجعته، فرأى أنه كلما حدث ذلك حدث فعلاً الغلاء والوباء في مصر؛ كذلك، يؤكّد على موافقته رأيَّ صاحب هذا الكتاب بأنَّ القرآن العاشر كانت بدايته سنة ٧٨٦ هـ/١٣٨٤ م ونهايته سنة ٨٠٦ هـ/١٤٠٤ م، أيَّ أنه استمرَّ لمدة عشرين عاماً تدهور فيها حال القاهرة تدهوراً شديداً كما توقع المنجم؛ كما يوافقه في توقعه خراب القاهرة ونهايتها في عام ٨١٨ هـ/١٤١٥ م عندما يقترن زحل والمريخ في برج السرطان، ويستدلُّ على ذلك بسوء حال القاهرة العمرانية والاقتصادية^{٣٦}.

ويذكُر كل من المقريزي وابن تغري بردي أنَّ الوباء في يوم منتصف جمادى الآخرة من عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م أخذ يتناقص استجابةً من الله لدعاء الصالحين، ولكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى في رجب لسبب فلكي وهو دخول الشمس في برج الحمل^{٣٧}.

ويتفق ابن تغري بردي مع المقريزي في الاعتقاد بصحة التنجيم ووقوع الوباء بسبب حركة النجوم في أبراج السماء فيقول إنه في عام ٨٥٦ هـ/١٤٥٢ م، فشا الموت في القاهرة بسبب حدوث وباء لم يذكُر ما هو، ولكنه يقول إنه لم يكن الطاعون، واشتد بسبب انتقال الشمس إلى برج الحوت، بالرغم من رخص الأسعار والرخاء في هذا العام^{٣٨}. كذلك اعتقد ابن تغري بردي أنَّ الطاعون الذي حدث بواسطه وانتشر منها إلى سائر العراق في عهد الحاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥ هـ/٧١٣ م) قد حدث بسبب شؤم هذا الأخير^{٣٩}.

٠٢. الأوبئة كعقاب إلهي

وبالرغم من أنَّ المؤرخين في ذلك العصر كانوا يميلون إلى تفسير الأوبئة بالأسباب الطبيعية، كانوا ينقلون في مؤلفاتهم التفسيرات الدينية التي كان يميل إليها مجتمع العصر المملوكي. ويروي كل من المقريزي وابن تغري بردي والصيري في الاعتقاد بأنَّ الطاعون قد يصيب البعض بسبب الدعاء عليهم به، فيقولون إنَّ السلطان الأشرف برسباي (٨٤١-٨٤٢ هـ/١٤٣٨-١٤٢٢ م) كان يؤمن بأنَّ دعاءه على المماليك السلطانية بسبب فسادهم وتصرفاتهم المسيئة إليه

٣٥ المقريزي، الخطط، ٢، ص ٢٤٢.

٣٦ المقريزي، الخطط، ٢، ص ٢٤٣.

٣٧ المقريزي، السلوك، ٤، ٢، ص ٨٢٨-٨٢٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤، ص ٣٤٣.

٣٨ ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ٢، ص ٥٥٧.

٣٩ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١، ص ٠٢٣٠.

إلى الناس تسببت في موتهم بالطاعون عام ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م، وأنه اشتري بعد ذلك المماليك، فأفسدوا مثلما فعل من كان قبلهم فدعا عليهم فأصابهم الطاعون أيضاً عام ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م، ثم يقول إنه قد عفا عنهم حتى لا يصيب الوباء البقية.^{٤٠}

وقد ظلت وجهة النظر الغالبة لدى العلماء والفقهاء وعامة الشعب وخاصةً أن وقوع الوباء بسبب إرادة الله وكانت التفسيرات المختلفة تبحث في كيفية إنفاذه لإرادته.^{٤١} وبسبب انتشار الخوف وعدم الأمان وبسبب عدم جدوى الجوع إلى الأطباء، تتصاعد الرغبة في الاحتماء بالدين، ويزيد التردد على دور العبادة وممارسة الشعائر الدينية. وللحاجة إلى لوم المتسبب في وقوع الوباء، ظهرت تفسيرات غيبية كان أهمها أن الأوبئة عقاب من الله بسبب فساد العباد وظلم الحكام وغضب من الله تعالى بسبب انتشار الفواحش وشرب الخمر وأكل الربا وخروج النساء متزنيات ومتبرجات من بيوتهن. وفي الواقع لم يكن التفسير الديني للأوبئة قاصرًا على العالم الإسلامي بل كان ظاهرة عامة في العصور الوسطى في كل العالم المعروف آنذاك^{٤٢}، فجميع مؤرخي الموت الأسود وأوبئة الطاعون اللاحقة يفسرون هذه الكوارث على أنها عقوبات إلهية للإنسان على خططيه. ولم تكن فكرة الغضب الإلهي بأي حال من الأحوال اختراعًا من اختراعات العصور الوسطى إذ تعود إلى أقدم العصور التي عرفتها البشرية.^{٤٣}

وقد قال ابن إياس إن «الطاعون كان في مدة انقطاعه عن مصر كثربها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وظلم المماليك في حق الناس»^{٤٤}. وفي ٢٣ من رمضان عام ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م، اجتمع قضاة المذاهب الأربع والعلماء وطلاب العلم لقراءة صحيح البخاري في القلعة بين يدي السلطان الأشرف برسياي، كما هي العادة في ذلك العصر، وكان السلطان قلقاً من أمر انتشار الوباء في البلاد، فسأل القضاة والفقهاء عن الذنب التي إذا ارتكبها الناس عاقبهم الله بالطاعون، فقال له بعضهم: إن الزنا إذا فشا في الناس ظهر فيهم الطاعون، وأن النساء يتزينن وimitation في الطرقات ليلاً ونهاراً، وأشار آخر إلى أن المصلحة تقتضي بمنع النساء من المشي في الأسواق، فنازعه آخر فقال: لا يمنع من ذلك إلا المتبرجات، وأما العجائز ومن ليس لها من يقوم بأمرها، فلا تمنع من تعاطي حاجاتها، وعارض بعضهم البعض؛ فمال السلطان إلى منعهن من الخروج مطلقاً، واتفق معه العلماء على ذلك، وتوعد من خرج منهن بالقتل، ظناً منه أنه بمنعهن يرتفع الوباء، وأصدر أمراً بذلك وتولى تنفيذه والي القاهرة والمحاسب ورجاله، وأقال السلطان المحاسب القاضي صلاح الدين محمد بن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله وولى دولات نجاحاً الذي وصفه

٤٠. المقريزي، السلوك، ٤، ق. ٢، ص ٤٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الظاهرة، ١٤، ص ٣٥٦؛ الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص ٤٦.
٤١. Dols 1977, p. 84.

٤٢. عنان، ١٩٦٩، ص ١٥٣؛ الجعدي ٢٠٠٢، ص ٣٢٠-٣١٨؛ مصطفى عبد العظيم ٢٠٢٠، ص ٢٠٠-١٧؛ حمودة ١٩٨٩، ص ٤٨.
٤٣. Hanska 2002, p. 116.

٤٤. ابن إياس، بدائع الزهور، ٢، ص ٢٧٣.

بأنه «ليس بمسلم ولا يخاف الله»^{٤٤}، وذلك حتى يمنع النساء من الخروج بقسوة وبعقوبات شديدة، ظلاناً أن منعهن سيدى إلى زوال وباء الطاعون، ثم خفف السلطان هذا المنع لما لحق بالناس من مشقة، فسمح للجواري بالخروج بشرط ألا يتقدن، وأن تخرج العجائز لقضاء أشغالهن، كما سمح للنساء بالخروج إلى الحمام بشرط ألا يبز فيهم^{٤٥}. ويوضح من تعليقات المقريزى والصيرفى عدم رضاهم عن هذا القرار فيقول المقريزى: «[...] فازداد الناس وقوف حال، وكساد معيش، وتعطل الأسواق، وقلة مكاسب»^{٤٦}؛ واتفق معه الصيرفى في ذلك بالإضافة إلى أنه عدد بعض الحوادث المفجعة التي حدثت للنساء نتيجة منعهن من الخروج والعقوبات الشديدة التي وقعت عليهن، ومنها أن امرأة منعوها من اتباع جنازة ابنها الوحيد الذى مات بالطاعون فألقت نفسها من سطح بيتها فماتت، وأمرأة خرجت لضرورة فوجدت المحتسب دولات نجاحاً فأمر بحملها إلى داره لعقابها فذهب عقلها من الخوف ومرضت أيامًا وماتت^{٤٧}.

وقد انتقد ابن تغري بردى هو الآخر هذه القرارات وما ترتب عليها من الأضرار التي لحقت بالناس، فقال:

كل ذلك لعدم أهلية الحكم واستحسان الولاة على الخواطئ، وإلا فالحرمة معروفة ولو كانت في الخمار، والفاجرة معروفة ولو كانت في البيت الحرام، ولا يخفى ذلك على الذوق السليم، غير أن هذا كله وأمثاله لولادة المناصب غير أهلها، وأما الحكم التحرير الحاذق الفطن إذا قام بأمر نهض به وتبع الماء من مجاريه، وأخذ ما هو بصدره حتى أزاله في أسرع وقت وأهون حال، ولا يحتاج ذلك إلى بعض ما الناس فيه، وهو ذهاب الصالح بالطاغي والبريء مع الجرم، وتحكم مثل هذا الجاحد بال المسلمين^{٤٨}.

وقد رصد المؤرخون الطرق التي حاول بها الناس إطفاء غضب الله واسترضاءه، فيقول المقريزى إنه عندما اشتد الوباء في عام ٧٤٨ هـ/١٣٣٨ م في دمشق، جاء رجل من بلاد الروم إلى قاضي دمشق، الشيخ تقى الدين السبكي، فزعم أنه رأى النبي محمد ﷺ في رؤيا فشكى إليه الوباء وموت الناس فأمره بأن يقول للناس أن يقرأوا سورة نوح ثلاثة آلاف وثلاثمائة وستين مرة وأن يدعوا الله لينذهب الوباء، فأخبر الناس بذلك فاجتمعوا في المساجد وفعلوا مثلما قال وتضرعوا إلى الله وتباوا من ذنبهم وذبحوا وأطعموا الفقراء لمدة سبعة أيام، ثم يروي أنه نتيجة لذلك، كان الوباء يتناقص كل يوم من الأيام السبعة حتى زال، فنودي في الناس ليجتمعوا في الجامع الأموي فاجتمعوا

٤٥. الصيرفى ١٩٧٣-١٩٧١، ٣، ص ٤٠٥.

٤٦. المقريزى، السلوك، ٤، ٢، ص ١٠٣١؛ الصيرفى ١٩٧٣-١٩٧١، ٣، ص ٤٠٦-٤٠٤؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ١٥، ص ٩٣.

٤٧. المقريزى، السلوك، ٤، ٢، ص ١٠٣٣.

٤٨. الصيرفى ١٩٧٣-١٩٧١، ٣، ص ٤٠٩.

٤٩. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ١٥، ص ٩٥.

فيه وأخذوا يقرأون صحيح البخاري ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، ثم ذهبوا ومعهم أطفالهم إلى المصلى وأخذوا يصلون ويذعون لله لمدة ثلاثة أيام، فتراجع الوباء حتى انتهى؛ وروى كذلك أن نائب حلب أرسل إلى السلطان أن بعض الصالحين في مدینته رأى النبي وأنه أمره بالتبوية والدعا بدعاء معين وأنه كتب هذا الدعا وأرسله إلى حماة وطرابلس ودمشق.^{٥٠} ثم يعود المقرizi ويؤكّد على أن ذنوب الناس هي السبب في حدوث الطاعون وأن التوبة والصلوة والتضرع إلى الله تذهبه فيقول:

وفي هذا الشهر، أي رجب من عام ٨٤١هـ، وقع الوباء في بلاد الصعيد، وكثير بدمشق، وشنع بحلب وأعمالها، فأظهر أهلها التوبة، وأغلقوا حانات التمارين، ومنعوا البغایا الواقفات للبغاء، والشباب المرصدین لعمل الفاحشة، بضرائب تتحمل لنائب حلب وغيره من أرباب الدولة، فتناقص الموت وخف الوباء، حتى كاد يرتفع، ففرح أهل حلب بذلك، وجعلوا شكر هذه النعمة أن فتحوا التمارين وأوقفوا البغایا والأحداث للفساد بالضرائب المقررة عليهم، فأصبحوا وقد مات من الناس ثمانمائة إنسان. واستمر الوباء الشنيع والموت الذريع فيهم، في رجب وشعبان وما بعده.^{٥١}

لكن عندما يروي أحداث الوباء في مصر، يختلف تعليق المقرizi على اجتماع الناس للصلوة عما سمعه من أحداث الشام واختفاء الوباء بها بعد اللجوء إلى الله، فيقول إنه في نفس العام، فعل المصريون ما فعله أهل الشام، فقد نودي في الناس فاجتمعوا في المساجد في يوم الجمعة السادس من رمضان فدعوا الله وصلوا وقرأوا صحيح البخاري لعدة أيام، ولكن عدد الأموات، مع ذلك، زاد حتى عجز الناس عن حصر أعدادهم.^{٥٢}

كذلك، يروي المقرizi أنه في عام ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م، ومع اشتداد وباء الطاعون في مصر، نودي في جمادى الأولى في الناس بصيام ثلاثة أيام، وأن يتوبوا إلى الله تعالى من معاصيهم، ويردوا المظالم إلى أصحابها، ويعلق على ذلك بأن الحكام أمروا الناس بذلك واستبرأوا هم في ظلم الناس وأمر وهم بأن يخرجوا إلى الصحراء في اليوم الرابع، خفروا في جمع غفير خارج باب النصر، وعلى رأسهم قاضي القضاة، علم الدين صالح البقيني، وجلس بجانب تربة الظاهر برقوق (١٣٩١-٧٩١هـ / ١٣٩٢-٨٠١م و ١٣٩٢-٧٩٢هـ / ١٣٩٩م) وتضرع إلى الله ودعا ووعظ الناس فبكوا وضجوا ضجيجا شديدا، وانصرفوا قبل الظهر. يذكر المقرizi أن «الموت كثُر في الناس بعد هذا اليوم».^{٥٣} ويرجع

٥٠. المقرizi، السلوك، ٢، ق، ٣، ص ٧٧٩-٧٨٠.

٥١. المقرizi، السلوك، ٤، ق، ٢، ص ١٠٢٧-١٠٢٨.

٥٢. المقرizi، السلوك، ٢، ق، ٣، ص ٧٨٠-٧٨١.

٥٣. المقرizi، السلوك، ٤، ق، ٢، ص ٨٢٢-٨٢٣.

المقريزي والصيري في ذلك إلى ظلم الحكام والولاة، فقد «أمروا الناس برد المظالم وهم على ما هم عليه من الظلم»^{٥٤}، أما الصيري في أرجع انتشار الوباء إلى وجود علم الدين صالح البليقني في منصب قاضي قضاة الشافعية، وأنه حصل على هذا المنصب بدفع الرشوة وهو غير مستحق له، ويبدو أن هذا الرأي كان منتشرًا بين الناس بدليل أن السلطان الأشرف برسباي عزله سنة ٨٤١ هـ/١٤٣٨ م وولى الحافظ ابن حجر مكانه «لخوفه من الطاعون، وأقسم ألا يولي أحدًا من القضاة بالرسوة بعد ذلك وأشهد على نفسه»^{٥٥}.

وبحسب ما أورده المقريزي وابن تغري بردي، في يوم الجمعة الخامسة عشر من جمادى الآخر من عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م، جمع الشريف شهاب الدين أحمد كاتب السر بالديار المصرية، بأمر السلطان الأشرف برسباي أربعين شريفاً اسم كل منهم محمد، وفرق فيهم من ماله خمسة آلاف درهم، وأجلسهم بالجامع الأزهر فقرأوا ما تيسر من القرآن الكريم بعد صلاة الجمعة، ثم قاموا هم والناس فوقوا ودعوا الله تعالى حتى دخل وقت صلاة العصر، فصعد الأربعون شريفاً إلى سطح الجامع وأذنوا جميعاً، ثم نزلوا وصلوا مع الناس صلاة العصر وانصرفوا وانصرف الناس، وكان ذلك بمشورة بعض القادمين من المشرق الإسلامي، وأنهم عملوا ذلك في بلادهم فارتفع الوباء عقب ذلك، ويدرك كل من المقريزي وابن تغري بردي أن الوباء أخذ يتناقص في الأيام التالية لهذا الأمر، لكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى في رجب - وإن كانوا أرجعوا ذلك إلى سبب فلكي وهو دخول الشمس في برج الحمل - كما سبق القول^{٥٦}، بينما أرجع الصيري زواله إلى ما يعتقده من بركة النبي محمد ﷺ وبركة آل البيت^{٥٧}.

ويذكر المقريزي والصيري أنه في عام ٨٤١ هـ/١٤٣٨ م، أراد السلطان الأشرف برسباي أن يتقرب إلى الله فأخرج جميع السجناء من الجرميين ومن عليه دين وأغلق السجون كلها، ولكن كان عاقبة ذلك أن انتشر الجرائم وزادت الجرائم وامتنع بعض الناس عن سداد ديونهم وضاعت حقوق الناس^{٥٨}.

وقد دفعت محاولات التقرب إلى الله لرفع الوباء أحياناً إلى اضطهاد المسيحيين ظناً أن ذلك يرضي الله، ففي عام ٨٤١ هـ/١٤٣٧ م، حين اشتد الوباء، هوجمت بيوت بعض المسيحيين وأريقت دنان الخمر التي كانت بها، كما هدم دير المغطس، بالقرب من بحيرة البرلس عند الملاحمات، وكان يزوره المسيحيون المصريون في عيد الظهور

٥٤. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ٨٢٢؛ الصيري، ١٩٧٣-١٩٧١، ٣، ص١٨٤.

٥٥. الصيري، ١٩٧٣-١٩٧١، ٣، ص٤٠٨.

٥٦. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص٨٢٩-٨٢٨؛ ابن تغري بردي، التحوم الراهنة، ١٤، ص٣٤٣.

٥٧. الصيري، ١٩٧٣-١٩٧١، ٣، ص١٩٠-١٩١.

٥٨. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص١٠٣٣؛ الصيري، ١٩٧٣-١٩٧١، ٣، ص٤٠٥.

ويقدسوه.^{٥٩} ويدرك المقرizi أنه «قد نزلت أنواع المكاره بأهل الذمة من اليهود والمسيحيين في هذا العام»^{٦٠} بينما يقول الصيرفي إن «الظلم زاد في هذا العام على أهل الذمة وزلت بهم المكاره»^{٦١}.

كذلك، احتفظت لنا المصادر التاريخية بعض التفسيرات الغيبية الأخرى كرغم الناس أن مقتل شخص لادعائه أنه يعرف صناعة الكيمياء وتضييعه أموال السلطان على تحويل المعادن إلى معادن نفيسة بلا جدوى، قد أدى إلى وقوع الوباء والغلاء والجفاف.^{٦٢}

٣. علماء الدين والأوبئة

٣.١. التفسيرات الدينية لانتشار الأوبئة

أما الفقهاء والمحثثون، فإلى جانب التفسير الطبي لحدوث الوباء والقائم على نظرية الألحادط الأربع وفساد وتعفن الهواء والمياه والأغذية، تبنوا تفسيرات دينية مأخوذة في الأساس من كتب الأثر والحديث. ولعل أبرز مثال على ذلك ما كتبه ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٩ م) في بذل الماعون في فضل الطاعون، وقد نلخصه السيوطي (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م) في ما رواه الوعون في الطعن والطاعون، وهو يتفقان في أن الطاعون رجز وعذاب عذبت به الأمم السابقة على المسلمين، وقيل هم بنو إسرائيل.^{٦٣} ويستدل على ذلك، في نظرهما، بأن عبد الرحمن بن عوف أخبر أصحابه وهو في طريق الشام، لما بلغه أن بها الطاعون، عن النبي ﷺ، فقال: «إن هذا الوجع - أو السقم - عذاب عذب به من كان قبلكم»؛ وفي بعض طرقه: «عذاب عذب به بعض بنو إسرائيل»^{٦٤}، ولكن هذا العذاب صار رحمة وشهادة للمؤمنين، فيذكر حديث البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنه «كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله رحمة للمؤمنين»^{٦٥}، أي أن من يصاب بالطاعون يعد شهيداً فيدخل الجنة بلا سؤال أو حساب.

٥٩. المقرizi، السلوك، ٤، ق٢، ص١٠٣٤؛ الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص٤٠٧-٤٠٨.

٦٠. المقرizi، السلوك، ج٤، ق٢، ص١٠٣٥.

٦١. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص٤٠٧-٤٠٩.

٦٢. ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ص٤٠-٤١؛ ابن إياس، بدائع الзорور، ٢، ص٢٧١.

٦٣. ومن ذلك أن الله ضرب بنو إسرائيل بالطاعون عقاباً على ما فعله داود من إحسان الشعب. سفر صموئيل الثاني، إصحاح ٢٤؛ سفر الأيام الأول، إصحاح ٢١. يروي ابن حجر هذه الواقعة فيجعل العقاب بسبب ظلم وطغيان بنو إسرائيل. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص٨٢. ويرى السيوطي كذلك أنه كان عقاباً أرسله الله تعالى على بنو إسرائيل بسبب الزنا (السيوطى)، ما رواه الوعون، ص١٣٩.

٦٤. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص٧٣-٧٧، السيوطي، ما رواه الوعون، ص١٣٧-١٣٨.

٦٥. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص٧٨-٨٠.

ويعتقد ابن حجر العسقلاني والسيوطى أن السبب في حدوث الطاعون ونحوه أو طعن من الجن^{٦٦}، كما أخبر النبي ﷺ بذلك حسب قولهما، ثم يناقشان كون هذا الجن كافراً أم مسلماً، فيذكر أن هناك أقوالاً في ذلك، الأول أنهم كفار والثاني أنهم مسلمون يفعلون ذلك بأمر الله تعالى للعقاب أو الابتلاء والقول الثالث أنهم من المسلمين والكافر على السواء، وأن الوباء رحمة للمسلمين لأنهم يحصلون على الشهادة وبالتالي يدخلون الجنة بدون حساب أو عقاب، ولذلك، على حد قولهما، دعا الرسول صلى الله أن يكون وفاة أمته بالطعن أي القتل والطاعون، فيصير الطاعون عقاباً لمن يستحق العقوبة ورحمة للمؤمنين^{٦٧}.

٢٠٣. رجال الدين بين العلم والطب في تفسير حدوث الأوبئة

يروي ابن حجر في كتابه *كلام ابن النفيسي الطيب في الموجز في الطب* من أن الوباء ينشأ عن فساد يعرض لجواهر الماء لأسباب سماوية ككثرة الشهب والرجوم في آخر الصيف، أو كثرة الجنوب والصبا في الكانونين (ديسمبر ويناير)، أو كثرة علامات المطر في الشتاء دون أن تطر، وأسباب أرضية كالماء الآسن والجيف الكثيرة، وأنه يقع كذلك في مواضع المعركة إذا لم يدفن القتلى، وبسبب التربة كثيرة التعفن، وكثرة الحشرات والضفادع^{٦٨}. ويعتبر السيوطى على ذلك وعلى فكرة تغير الأخلاط قائلاً إن «كل داء بسبب من الأسباب الطبيعية له دواء من الأدوية الطبيعية، وهذا الطاعون قد أعى الأطباء دواؤه حتى سلم حذاقهم أنه لا دواء له، ولا دافع إلا الذي خلقه وقدره»^{٦٩}.

ويحاول ابن حجر التوفيق بين رأي الأطباء، من جهة، وما ورد من الأحاديث ورأي رجال الدين من الفقهاء والمفسرين والمحاذين، من جهة أخرى، فيقول إن كون الطاعون «من طعن الجن لا يخالف قول الأطباء من كونه ينشأ عن مادة سمية أو هيجان الدم أو انصبابه إلى عضو أو غير ذلك، لأنه لا مانع من أن ذلك يحدث عن الطعنة فيحدث منها المادة السمية أو يهيج بسببها الدم أو ينصلب»^{٧٠}. كذلك، يضيف، قد تكون بعض الأوجاع في الطاعون من غلبة الطبائع، ولا ينافي ذلك كونه من طعن الجن، لاحتمال أن يحصل ذلك التغير عند وجود الطعنة، فينزعج بدن المطعون، فيفور به الدم، وتحصل له الكيفية الرديئة التي شخصها الأطباء، بحسب ما اقتضته

٦٦. فكرة ونحوه أو طعن الناس بالطاعون معروفة في العهد القديم، فقد ورد في سفر الأيام رؤيا داود لملك بيده سيف عندما نظر إلى السماء أثناء وباء الطاعون. سفر الأيام الأول، إصحاح ٢١.

٦٧. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٠٩-٢٦٢، ١٥٦، السيوطي، ما رواه الوعون، ص ١٤٢-١٤٦، ١٥٠-١٥١.

٦٨. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٠١-١٠٠.

٦٩. السيوطي، ما رواه الوعون، ص ١٤٧.

٧٠. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ٤-١٠٥.

قواعدهم، ولا ينافي ذلك أصل سببه الأول^{٧١}. ثم يقول إن «الأطباء معدنورون لأن طعنة الجن أمر لا يدرك بالعقل ولا بالتجربة وإنما يدرك بتلقيه من الشارع»^{٧٢}.

ويرد ابن حجر على قول الأطباء إن السبب في حدوث الطاعون هو فساد الهواء بأنه لو كان بسبب ذلك لدام وجوده أو انتظم، ولعم جميع الناس والحيوانات، ولكنه يصيب البعض فقط، وبأن فساد الهواء يتقتضي تغيير الأخلاط وكثرة الأمراض، أما الطاعون فيقتل بلا مرض أو بمرض يسير، وبأنه لا دواء له بينما كل داء بسبب من الأسباب الطبيعية له دواء، ويستدل على ذلك بحديث الرسول ﷺ: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، عليه من علمه، وجده من جهله»^{٧٣}. ويحاول ابن حجر مرأة أخرى التوفيق بين كلام الأطباء والأحاديث فيذهب إلى أنه ربما كان الوباء على ضربين: ضرب منه يحدث بسبب غلبة بعض الأمراض كالدم أو الصفراء إذا احترقت أو غير ذلك، بدون تدخل من الجن، والضرب الآخر بسبب ونزع الجن^{٧٤}. لكنه يرى أن السبب الرئيسي للطاعون هو ونزع الجن، سواء كان الونزع من جن مؤمن أو جن كافر، ويدرك أن الجن الكافر يطعن المسلمين والجن المؤمن يطعن الكفار. وقد يطعن الجن الكافر المسلمين انتقاماً من الجن المسلم^{٧٥}، ثم يذكر الخلاف عن كون هذا الونزع رحمة أو عقوبة على المعاصي، فيذكر أن ونزع الجن الذي يتسبب في الطاعون يكون بتسليط من الله تعالى عقوبة من يستحق العقوبة وشهادة ورحمة من هو أهل لها^{٧٦}.

ويرى ابن حجر أن السبب الحقيقي لحدوث الأوبئة هو انتشار الزنا، وأن الله يسلط الجن لإقامة حد الزنا على المصاب بهذا الطعن (أو الونزع)، فيما يموت الزاني المحسن ويتعذب غير المحسن، أو يحارب الجن الإنسان لإظهارهم الفاحشة أو ترك إنكارها فيما يوتون ويبعث كل فرد على نيته^{٧٧}. ولذلك، يذكر ابن حجر حدوث العدوى لحديث «لا عدوى ولا طيرة»، فيرى أن الأمراض لا تتعدي بنفسها ولكن الله تعالى جعل مخالطة المريض بها لل الصحيح سبباً لإعدائه مرضه، وقد لا تحدث العدوى، ويكون ذلك بمشيئة الله تعالى^{٧٨}.

٧١. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٠٨.

٧٢. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٠٨.

٧٣. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٠٥-١٠٧.

٧٤. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٤٤-١٤٥، ٢١٥.

٧٥. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ١٥٣.

٧٦. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ٢١٥-٢١٧.

٧٧. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص ٢٩٢.

خاتمة

وما سبق نرى أن تفسيرات المؤرخين في القرن الخامس عشر لحدث الأوبئة اختلفت باختلاف خلفياتهم وانقسمت إلى قسمين رئيسيين: قسم تبناه المؤرخون الذين تلقوا - إلى جانب التعليم الديني الأولى - علوما وثقافات متنوعة، كالمقريزي وابن تغري بردي والصيرفي، إذ مالوا إلى التفسيرات الطبية والطبيعية السائدة في عصرهم، كنظريّة الأخلاط الأربعة وتغيير الأمزجة التي انتقلت من الطب اليوناني القديم إلى الأطباء المسلمين، وسادت في العصور الوسطى. وبالرغم من ميلهم إلى تفسير الأوبئة بالأسباب الطبية رروا تفسيرات أخرى هي التفسيرات الدينية والغيبية التي انتشرت في عصرهم، وعلى رأسها العقاب الإلهي؛ مما جعل مؤلفاتهم التاريخية تحفظ لنا بالأفكار السائدة في العصر المملوكي والتي تأثروا هم أنفسهم ببعضها، وخاصة ما كان يستند منها إلى العلوم الزرافة كالتنجيم، بالإضافة إلى إبداء وجهة نظرهم فيها - ما بين مؤيد ورافض ونافق لها ولنتائجها السلبية على المجتمع -، وذلك كممثلين للطبقة المثقفة في هذا العصر.

أما القسم الثاني من تفسيرات حدوث الأوبئة فتلك التي احتفظت بها مؤلفات رجال الدين من المحدثين والمفسرين والفقهاء، كالسيوطى وابن حجر العسقلانى، والمعتمدة أساسا على الأحاديث والآثار المنسوبة عن الرسول ﷺ وعن صحابته، والتي تعتمد اعتمادا تاما على الأفكار الغيبية كالجن والعقاب الإلهي على انتشار الزنا، وهي تفسيرات لم ينفرد بها رجال الدين الإسلامي بل تأثروا فيها بالكتاب المقدس (التوراة)؛ وقد رفض أصحابها الأفكار العلمية السائدة في العصور الوسطى أو حاولوا التوفيق بينها وبين الآثار الدينية مع الإصرار على صحة ما ورد فيها بشكل حرفى. ويندو واصحامن دراسة كل هذه المؤلفات التاريخية ومؤلفات رجال الدين أن التفسيرات الدينية لظهور الأوبئة، وخاصة فكرة العقاب الإلهي، كانت هي السائدة في المجتمع، وخاصة بين العامة ورجال الدين، مقارنة بغيرها من التفسيرات.

الببليوغرافيا

١ المصادر

- ابن إياس، بدائع الدهور
ابن إياس، بدائع الدهور في وقائع الدهور، القاهرة، ١٩٧٢.
- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر
والقاهرة، القاهرة، ١٩٦٣.
- ابن تغري بردي، حوادث الدهور
ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق م. ك. عن الدين، القاهرة، ١٩٩٠.

- الصيري ١٩٧٣-١٩٧١
الصيري، نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان،
ج ٣-١ تحقيق ح. حبشي، القاهرة، ١٩٧٣-١٩٧١
- الصيري، نزهة النفوس والأبدان
الصيري، نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان،
ج ٤، تحقيق ح. حبشي، القاهرة، ٢٠١٠
- المقريزي، السلوك
المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق
م. م. زيادة، القاهرة، ١٩٧٣-١٩٥٨
- المقريزي، الخطط
المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار
(الخطط المقريزية)، ٦ أجزاء، تحقيق أ. ف. سيد،
لندن، ١٩٩٥

جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط
جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط المسمى
إفيديبيا: من المقالة ١ إلى ٣ (ترجمة حنين بن إسحق)،
حققه وترجمه إلى الإنجليزية أ. فاجيلبول، برلين، ٢٠١٤

ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون
ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون في فضل الطاعون،
تحقيق أ. ع. ع. الكاتب، الرياض، د. ت.

ابن سينا، القانون في الطب
ابن سينا، القانون في الطب، تحقيق م. أ. الصناوي،
بيروت، ١٩٩٩

السيوطى، ما رواه الوعون
السيوطى، ما رواه الوعون في أخبار الطاعون، تحقيق
م. ع. الباز، دمشق، د. ت.

٠٢ الدراسات

باللغة العربية ■

- الجعیدی ٢٠٠٢
ش. إ. الجعیدی، الأزمات الاقتصادية والأوبيّة في مصر
في عصر المالكی الحراکسة، الاسکندریة، ٢٠٠٢
- واتس ٢٠١٠
ش. واتس، الأوبيّة والتاريخ، ترجمة أ. م. عبد الجود،
القاهرة، ٢٠١٠
- حmodة ١٩٨٩
ط. س. حمودة، جلال الدين السيوطى عصره وحياته
وآثاره وجهوده في الدرس اللغوى، بيروت، ١٩٨٩
- عنان ١٩٦٩
م. ع. عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية،
القاهرة، ط ٢، ١٩٦٩

١٩٩٩ عطية
أ. عطية، جالينوس في الفكر القديم والمعاصر،
القاهرة، ١٩٩٩

٢٠٢٠ مصطفى عبد العظيم
إ. مصطفى عبد العظيم، «غياب دور رجال الحكم
والرعاية في مواجهة أزمات وباء الطاعون في مصر
زمن سلاطين المالكية: ١٢٥٠-١٣٣٢ هـ / ١٥١٧-١٢٤٨ م
دراسة تحليلية»، مجلة البحث العلمي في الآداب،
عين شمس (القاهرة)، العدد ٢١، ج ٨، ٢٠٢٠

٢٠١٤ بيرن
ج. بيرن، الحياة اليومية في زمن الموت الأسود، ترجمة
ع. س. الأيوبي، أبوظبي، ٢٠١٤

٢٠١٥ ساراتشى
ر. ساراتشى، علم الأوبيّة، ترجمة أ. ف. حسن، القاهرة،
٢٠١٥

■ باللغة الإنجليزية

AYALON 2015

Y. Ayalon, *Natural Disasters in the Ottoman Empire*, Cambridge, 2015.

DOLS 1977

W.M. Dols, *The Black Death in the Middle East*, Princeton, 1977.

HANSKA 2002

J. Hanska, *Strategies of Sanity and Survival: Religious Responses to Natural Disasters in the Middle Ages*, Helsinki, 2002.

SARTON 1943

G. Sarton, «Remarks on the Theory of Temperaments», *Isis* 34, 3, 1943, p. 205-208.